

جوارى القصور

أبناء الجوارى

تسربت الجوارى المملحات إلى بلاط الخلفاء ، ومنازل
الأمراء والقواد ، فاستلبن لب موالين ، حتى أصبح هؤلاء
لا يصدرون أمراً إلا عن رغبة لمن . وقد حاول بعض الخلفاء
الأمويين ، ولا سيما معاوية ، إقصاء النساء الدخيلات عن النفوذ ،
وأن يحصرهن في الحدر ، فلا يتناولن إلى السلطة ، وذهب
التحفظ بالأشياخ المترمتين إلى الحط من أقدار أبناء الجوارى ،
ونصحوا بالابتعاد عنهن ، لأنهن يفسدن العرق العربى ، ويضعفن
العصبية القديمة . ونظر كثيرون من هؤلاء إلى الهجناء نظرة
احتقار وامتهان أول الأمر ، إلى أن كثر عددهم ، وكان منهم
أبناء خلفاء وأشراف . فقد روى رجل من قریش قال : كنت
أجالس سعيد بن المسيب ، وهو من هؤلاء المحافظين المتشددین
فی شؤون العرق ، فقال لى يوماً : من أخوالك ؟ فقلت : أمى
فتاة . فكأنى نقصت فى عيته . فأمهلت حتى دخل سالم بن
عبدالله بن عمر بن الخطاب ، فلما خرج من عنده قلت : يا عم ،

من هذا ؟ فقال سبحانه الله . أتجهل مثل هذا من قومك ؟
 هذا سالم بن عبد الله بن عمر . قلت : فمن أمه ؟ . فقال : فتاة .
 ثم أتاه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق فجلس عنده ،
 ثم نهض . فقلت : يا عم . من هذا ؟ فقال : أتجهل من أهلك
 مثله ؟ ما أعجب هذا ! هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر
 الصديق . قلت : فمن أمه ؟ قال : فتاة . فأمهلت شيئاً حتى
 جاء علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، فسلم عليه ، ثم
 نهض . فقلت : يا عم . من هذا ؟ قال : هذا الذي لا يسع
 مسلماً أن يجهله ، هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب
 فقلت : من أمه ؟ قال : فتاة . قلت : يا عم . رأيتني نقصت
 في عينك لما علمت أنني لأم ولد . أفألى في هؤلاء أسوة قال :
 فجعلت في عينه جداً (١) .

وكانت هذه الكراهية تتعدى الأغراب أحياناً إلى الآباء
 أنفسهم ، فيفضلون أولادهم من الحرائر على الذين أنجبهم
 الجوارى ، كما حدث عند ما استبق بنو عبد الملك في حلبة
 الجياد ، فسبقوا مسئمة ، وكان ابن أمة ، فتمثل عبد الملك
 بقول عمرو العبدى القائل :

(١) الكامل ج ١ ص ٢٥٢ : المشرق ج ٣ تموز ١٩٣٧ .

تهيتكموا أن تحملوا فوق خيلكم
هجيناً لكم يوم الرهان فيدرك
فتعثر كفاه ويسقط سوطه
وتخدر ساقاه فما يتحرك
وهل يستوى المرءان : هذا ابن حرة
وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك
فقال له مسلمة : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين . ليس هذا
مثلي ، ولكن كما قال ابن المعمر :
فما أنكحونا طائعين بناتهم
ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا
فما زاد ما فيها السباء مذلة
ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا
وكم قد ترى فينا من ابن سبية
إذا لقي الأبطال يطعنهم شذرا
ويأخذ ريان الطعان بكفه
فيوردها بيضاً ويصدرها حمرا
فقبل رأسه وعينه وقال : أحسنت يا بني . ذاك والله أنت .
وأمر له بمائة ألف درهم مثلما أخذ السابق (١).

ولا شك أن هذه الحالة قد تعدلت فيما بعد ، وتحولت إلى نقيض ما كانت عليه ، وأصبح العرب يسعون جاهدين في إنجاب المهجناء ، لأنهم فطنوا إلى أن الزواج في النزاع - اللواتي يتزوجهن في غير عشيرتهن - يؤدي حتماً إلى إنجاب أولاد أشداء أقوىاء . فرغب كثيرون منهم في البناء بالأعجميات ، وقد قال أحدهم : بنات العم أصبر ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رؤوس الأبطال كأبن الأعجمية (١) .

ومن الثابت أن التدله بالأعجميات لم ينتج معظمه عن الرغبة في النسل القوي النشط ، وفي الإتيان بجبل تمتزج في عروقه الدماء العربية والأعجمية ، وإنما هذا التدله ناشئ عن ميل جنسى عنيف ، وعن انتقال فرسان العرب من بلد إلى آخر ، وابتعادهم عن العرييات الحالصات ، وكان لا بد لهذا الاتصال من أن يؤدي إلى إنجاب الأولاد . وقد فتن كثير من العرب في أول عهدهم بلون الأعاجم المشرق ، وسرهم أن يكون أبناءهم على شيء من البياض ، وبلغ إعجابهم بأبناء الأعاجم أنهم كانوا يفضلونهم علناً على أبناءهم السمر الوجوه أو المائلين إلى السواد . فقد قال رجل من أبناء المهاجرين : أبناء هذه الأعاجم كأنهم نقبوا الجنة ، وخرجوا منها ، وأولادنا كأنهم

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣ .

مساجر التناير» (١) وقال آخر : من أراد قلة المؤونة ، وخفة النفقة ، وحسن الخدمة ، وارتفاع الحشمة ، فعليه بالإملاء دون الحرائر . وقال ثالث : عجبت لمن استمتع بالسرارى كيف يتزوج المهائر .

نفوذهن

أخذ نفوذ الجوارى يقوى شيئاً فشيئاً حتى أصبح المرجع الرئيسى فى كثير من القضايا . وسعى مؤسسو الدولة العباسية للحد من سلطانهن وإضعاف شأنهن ، فكانوا يتفحصون أمر اللواتى يدخلن قصورهم ، فإذا وجدوهن ذوات أسر ، لهن أهل ، امتنعوا عن شرائهن ، والبناء بهن . وكان الخليفة المنصور أكثر العباسيين تشدداً فى هذا الباب . لذلك كانت الجوارى يعمدن أحياناً إلى الحيلة ، حتى إذا ولدن للخلفاء أسفرن عن حقيقتهن ، وأبن نسبهن ، كما فعلت الجارية الخيزران التى كانت لرجل من ثقيف ، فقدم بها مكة فباعها فى الرقيق . فاشترى وعرضت على المنصور فقال لها : من أين أنت ؟ . فقالت : المولد مكة ، والمنشأ جرش . قال : ألك أسند ؟ قالت : ما لى أحد إلا الله ، ما ولدت أمى غيرى . قال : يا غلام .

أذهب بها إلى المهدي ، وقل له : تصلح للولد . فأتى بها المهدي فوَقعت منه كل موقع . فلما ولدت موسى وهرون قالت : إن لي أهلاً بجرحش قال : ومن لك ؟ قالت : لي أختان اسمهما أسماء وسلسبيل ، ولي أم وأخوان . فكتب فأتى بهم ، فتزوج جعفر بن المنصور سلسبيل ، فولدت منه زبيدة ، واسمها سكيئة ، وهي التي تزوجها الرشيد . وقال المهدي للخيزران : قد ولدت رجلين بايعت لهما ، وما أحب أن تبقى أمة ، بل أود عتقك ، فخرجت إلى مكة ، وعادت منها فتزوجها (١) .

ومنذ ذلك العهد غدت الجوارى أقرب النساء إلى قلوب الخلفاء ، وأكثرهن نفوذاً عندهم . فملك ذات الحال زمام هرون الرشيد حتى أنه أقسم يوماً أنها لا تسأل شيئاً إلا قضاه لها فطلبت منه أن يولي أحد المقربين إليها الحرب والحراج بفارس سبع سنين . فامثل لها ، وكتب له عهداً به ، وشرط على ولي عهده بعده أن يتمها له ، إن لم تتم في حياته (٢) .

وهارون الرشيد هو أول من غالى من العباسيين في تفضيل الجوارى وتقريبهن . فإن معظم أولاده كانوا أبناء إماء : منهم عبدالله المأمون وأمه أم ولد فارسية يقال لها مراجل ، والقاسم

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ٨٠ .

المؤمن وأمه أم ولد يقال لها قصف ، ومحمد أبو إسحق المعتصم وأمه أم ولد يقال لها ماردة ، وهى تركية الأصل ، وكان لها أثر كبير فى أخلاق ابنها ، فدعاه ميله إلى أمه إلى استدعاء الأتراك الذين أضعفوا النفوذ فى الفارسي والعربي ، وانتزعوا من الخلفاء العباسيين كل سلطان . ومن أولاد هارون الرشيد صالح وأمه أم ولد يقال لها رثم ، ومحمد أبو عيسى وأمه أم ولد يقال لها عرابة ، ومحمد أبو يعقوب وأمه أم ولد يقال لها شذرة ، ومحمد أبو العباس وأمه أم ولد يقال لها خبث ، ومحمد أبو سليمان وأمه أم ولد يقال لها رداح ، ومحمد أبو علي وأمه أم ولد يقال لها دواج ، ومحمد أبو أحمد وأمه أم ولد يقال لها كتمان^(١).

فإن تعلق العربى بانتسابه إلى آبائه وجدوده وقبيلته قابله بعد الفتوح تهاون فى نسب الأم ، حتى ندر من الخلفاء من أمه حرة ، وكاد يلى الخلافة فى مستهل القرن الثالث الهجرى إبراهيم ابن المهدي ، وهو شديد السواد ، براق اللون ، وأمه أم ولد سوداء حالكة اللون .

كثيراً ما كانت الجوارى يشتركن فى المؤامرات التى تحاك فى البلاط عند خلع خليفة ومبايعة آخر . بعضهن قمن بأدوار حاسمة فى تاريخ العباسيين : منهن الجارية أم المقتدر الذى ولاه

(١) الطبرى ج ٦ ص ٥٤٠ .

الأتراك الخلافة وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره ظناً منهم أن
بوسعهم التصرف باسمه بشؤون الخلافة كما يشاؤون لضعفه وصغر
سنه . فإذا بهم يلاقون عنتاً شديداً من أمه ، وهى أم ولد
رومية . فقبضت على أزمة الأمور ، وقادت شؤون الدولة بحزم
وحنكة مدة ربع قرن ، وهى أطول مدة تولى فيها عباسى
الحكم آنذاك . وخلع الخليفة أثناء حكمه مرتين كانت أمه تسعى
إلى إعادته إلى كرسى الخلافة إلى أن تألب عليه الخصوم ،
فخرج لقتالهم فصرعوه . والبحارية الشيرازية حسن التى عاشت
فى البلاط أيام الخليفتين المتى والمستكفى هى التى سعت فى
إقصاء الأول عن الخلافة ، وأوعزت إلى غلامها السندى بسمل
عينيه عند ما أحجم القواد عن فعل ذلك ، وتسلمت على الثانى
حتى أقضت مضجعه ، وقضت عليه فيما بعد . وقد اندثرت فى
الخليفة الطائع جميع ملامح الجنس العربى ، فكان شبيهاً بسكان
المناطق الشمالية الباردة ، أبيض أشقر البشرة والشعر ، أزرق
العينين ، طويل القامة حسن الجسم ، شديد القوة .

أديانهم .

وكما أن الجوارى متعدّدات المصادر والأجناس والألوان

فهن مختلفات أيضاً في الدين . ينتمين عادة إلى الإسلام أو النصرانية أو اليهودية أو المجوسية . وأما الوثنيات الأصل فيسارعن إلى اعتناق الإسلام ديناً . وكثيراً ما تتحول الكتابيات أنفسهن إلى الدين الحنيفي ، ويقمن بالشعائر اللازمة في مثل هذه الأحوال تقريباً من أسيادهن الذين كانوا يحررون بعضهن للتزوج منهن زواجاً شرعياً . ينتقلن إلى الاسلام ، لأن الاختلاف في الدين يؤدي حتماً إلى أن لا يرث أحدهما الآخر . لذلك كانت الجوارى الكتابيات يسلمن أو يتظاهرن بالإسلام ليرثن أزواجهن الأغنياء بعد موتهم . ولم يكن اعتناقهن الدين الجديد بالامر الصعب المنال ، بل ينحصر ذلك بأن تشهد الجارية على نفسها أمام أحد الشيوخ ، وأن يكتب النص الآتي :

« حضر إلى شهوده في يوم تاريخه من ذكر أنه حضر إلى مجلس فلان - أدام الله أيامه - فلان بن فلان الفلاني (أو فلانة) ، وأشهدهم على نفسه أنه تلفظ بالشهادتين المعظمتين ، وهما شهادة أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، وأن عيسى بن مريم عبد الله وبنوه ، ومريم أمة الله ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأفضل المرسلين ، وأن شريعته أفضل الشرائع .

وملته أفضل الملل . وأن ما جاء به عن الله حق . وقال : أنا برئت من كل دين يخالف دين الإسلام . ودخل في ذلك طائفاً مختاراً ، وأشهد عليه بذلك . وتلفظ به بتاريخ كذا وكذا .

فإن أسلم يهودى (أو يهودية) كتب موضع عيسى : وأن موسى عبد الله ونبيه ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء وشريعته أفضل الشرائع . وأن شريعة محمد (ص) نسخت شريعة موسى وجميع الشرائع إلخ . . . (١) .

أما الجوارى اللواتى يبقين في الرق فيحافظن في أغلب الأحيان على دينهن القديم ، ويقمن بشعائره ، ويتقيدن بنواهيه ، ويتساهل أسيادهن معهن في ذلك ، فلا يكرهونهن على تغيير عقيدتهن ، وإنما يحترمون دينهن ، ويسهلون لهن القيام بالطقوس والفروض الخاصة في المواسم والأعياد . وليس من الغريب في شيء أن يدخل المقربون من المأمون مجلسه فيجدون جماعة من الجوارى الروميات وقد تمنطقن بالزنار ، وتزين بالدباج الرومى ، وعلقن على أعناقهن صلبان الذهب ، وأنخذن في أيديهن الخوص والزيتون بمناسبة عيد الشعانين ، وهن في مرح وبهجة ، والمأمون ينظر إلى ذلك ، ولا يستغرب ما يجرى

حواله (١). فمن المغالاة ، بل من الإسراف في المغالاة ، القول إن المسلمين أكرهوا حوارهم على تبديل دينهم . ولعل كثيراً من الشعائر النصرانية واليهودية وانجوسية كانت تقام في قصور الخلفاء ، أمراء المؤمنين ، الذين يرمزون إلى أرفع سلطنة زمنية وروحية في الإسلام .

أدى تدين الحوارى بغير دين السادة ، وتسربهن إلى جميع القصور ، والحظوة التي كانت لمن في القلوب إلى ظهور نفوذ الأخوال الأعاجم من فرس وترك وروم ، وإلى تنفيذ طوائف من رجال الأديان التي تدين بها الحوارى المحظوظات الرفيعات المقام . ولسنا نعجب بعد هذا إذا طالعنا في كتب التاريخ أن كثيرين من الخلفاء والوزراء والأمراء والعمال قربوا إليهم غير المسلمين وأنعموا عليهم بالخيرات ، ووسعوا عليهم ، وحكموهم بسواهم وبالمسلمين أحياناً ، لأن أمهات هؤلاء المتنفذين على دين النصارى أو اليهود أو المجوس . فكان للمقتدر خال روى يعرف باسم غريب ، يخاطبه الناس بالإمرة ، وهو ذو سلطان ، يرهبه الناس ، ويتقربون إليه في سبيل الوصول إلى ما يريدون من نعم الخلافة .

والدة الأمير القسرى

من أوضح الأمثلة على هذا النفوذ ما جرى للأمير خالد بن عبد الله القسرى عامل العراق للأمويين مع أمه النصرانية ، وهي رومية الجنس ، تغزل بها أحد الشعراء فقال مدافعاً عن نصرانيتها وزرقة عينيها :

يقولون نصرانية أم خالد فقلت دعوها كل نفس ودينها
فإن تلك نصرانية أم خالد فقد صورت صورة لا تشينها.
أحبك إن قالوا بعينك زرقة كذلك عتاق الطير زرق عيونها

وقد تأدبت بآداب العرب ، ولقنت لغتهم وفصاحتهم حتى طاع لها نظم الشعر أيضاً . وكان ابنها خالد محسناً إلى أهل الذمة يعرف لهم أقدارهم ، ويقلد من يصلح منهم الأعمال الديوانية . وهو أمر أنكره عليه هشام بن عبد الملك (١) ، ويظهر أنه لم يكن في زمانها كنيسة للروم الملكيين في الكوفة ، ويشق عليها أن تشهد صلوات النساطرة واليعاقبة ، فسألت ابنها أن يبنى لها بيعة خاصة بمذهبها البيزنطى . فلبى دعوتها ، وأقام لها البيعة المنسوبة إليه ، وبنى حولها حوانيت بالآجر والحصى . وهدمت

(١) الأغاني ج ١٩ ص ٥٩

بعد قتله ، وصار في مكانها سكة البريد^(١).

إخلاصهن

مما لا شك فيه أن الخداع كان أسرع إلى قلوب قيان الحانات وبيوت القيانين مما هو إلى قلوب الجوارى اللواتي يلقين مراسيهن في منازل أصحابهن فبأمن فيها تقلب الأيام ، وسوء المصير . ومما لا شك فيه أيضاً أن بعض الجوارى كن يخلصن لأصحابهن إخلاصاً عميقاً عنيفاً لا يزعزعه الحدثان ، ولا يضعفه ترهيب أو ترغيب ، كتلك الجارية الحسنة التي كانت للوائق ، فلما أخذها المتوكل أرادها على الغناء ، فأبت أن تغنى وفاء لصاحبها ، فأقام على رأسها خادماً ، وأمره أن يضرب رأسها أبداً أو تغنى ، فغنت مكرهة مستعبدة^(٢) . وكثيرات من الجوارى ذهبن في إخلاصهن لأسيادهن مذهباً لم تدانه الحرائر الأصيلات ، والأمثلة على ذلك عديدة . فإن دنائير كانت جارية مولدة من أحسن الناس وجهها وأظرفهن وأكملهن أدباً ، وأكثرهن رواية للغناء والشعر . فلما رآها يحيى بن خالد البرمكي ، أعجب بها فاشتراها ، وأتم تثقيفها على إبراهيم الموصلي حتى كانت تغنى غناءه فتحكيه ،

(١) حبيب الزيات - من الخزانة الشرقية - المشرق ج ٣ تموز ١٩٣٧

(٢) الأغاني ج ٤ ص ١١٥

فلا يكون بينهما فرق . وأغرم هرون الرشيد بنفسها . فكان يتردد على صاحبها ، وذهب لها يوماً عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار ، حتى عابه أهله على ذلك . وشغف بها صاحبها حتى كان يتصدق عنها في كل يوم من شهر رمضان بألف دينار ، لأنها كانت لا تصومه . وعند ما نكب البرامكة ، وحل الربال بصاحبها ، دعاها الرشيد إلى قصره ، وأمرها أن تغني فقالت : يا أمير المؤمنين إني آليت ألا أغني بعد سيدي أبداً . فغضب وأمر بصفعها ، فصفعت ، وأقيمت على رجلها ، وأعطيت العود فأخذته وهي تبكي أحربكاء ، واندفعت فغنت :

يا دار سلمى بنازح السند بين الثنايا ومسقط اللبد
لما رأيت الديار قد درست أيقنت أن النعيم لم يعد

متيم

وكذلك أمر الجارية متيم ، وهي صفاء من مولدات البصرة . فيها نشأت وتأدبت وبدأت بالغناء ، بعد أن أخذت عن مشاهير المغنين الذين عاصروها ، كإسحق الموصلي . فاشتراها على بن هشام ، وهو من أمراء المأمون وقواده ، وتولى له حرب بابك الحرمي ، ثم غضب عليه ، لأنه استعمله على أذريبجان وغيرها ،

فبلغه ظلمه وأخذه الأموال ، فقتله (١) . عند ما اشتراها على بن هشام كانت لا تزال جويرية ، فدفع فيها عشرين ألف درهم ، فازدادت في مجلسه جمالا وتفتناً بالغناء لكثرة من كان يغشاه من مشاهير المغنين ، واستفادت أدباً وعلماً . ونظمت الشعر ارتجالاً وعن روية ، وتقدمت على جواريه معرفة وحظاً . وقد سأل المأمون على بن هشام أن يهبها له لإعجابه بجمالها وغنائها ، فأبأها عليه ، وحرص على أن تصبح أم ولد فيأمن عليها من طمع المأمون . ويقال إن امتناع على من النزول عنها كان من الأسباب التي دعت إلى النعمة عليه وقتله .

عند ما فتك المأمون بصاحبها عتقت ، وكانت قد ولدت له أكثر أولاده ، فلم يتوصل إليها الخليفة ، وإن استصنى مال على بن هشام ، وأخذ جواريه غير أمهات الأولاد . وقد حزنت متيم على مولاها حزناً شديداً ، وأخلصت له طول عهد المأمون ، ولم يذكر المترجمون لها أنها غنت للخليفة بعد أن أوقع بعلي ، وإنما يذكر أنها مرت مع نسوة وهي متخفية بقصر على بن هشام بعد أن قتل ، فلما رأت بابه مغلقاً لا أنيس عليه ، وقد علاه التراب والغبرة ، وطرحت في أفنيتها المزابل ، وقفت وناحت

(١) الطبرى وابن الأثير في حوادث ٢١٧ هـ .

عليه ، ثم بكت حتى سقطت من قامتها . وجعل النسوة يناشدنها
الله في أن تكف وتسير ، لئلا تؤخذ . وبعد لأى ، حملنها تهادى
بينهن ، حتى تجاوزت الموضع . ويذكر أيضاً أنها عادت إلى الغناء
أيام المعتصم ، بعد قدومه بغداد . فقد دعا بها ، فذهبت إليه
فأمرها بالغناء ، فغنت :

هل مسعد لبكاء بعبرة أو دماء

فطلب منها العدول عنه إلى غيره ، فغنته بمعناه ، فدمعت
عيناه وأشار بالانتقال إلى معنى آخر فغنته :

لا تأمن الموت في حل وفي حرم

إن المنايا تغشى كل إنسان

فقال : والله لولا أنى أعلم أنك إنما غنيت بما في قلبك لصاحبك
وأنت لم تريدينى لمثلت بك . وأمر من كان بين يديه ، فأخذوا بها
وأخرجوها من مجلسه . ولعلها عادت فيما بعد إلى المعتصم
واستأنفت الغناء في حضرته ، إلى أن توفيت .

فارقت متيم الحياة قريب وفاة إبراهيم بن المهدي المعروف بجمال
الصوت وعقب وفاة بذل القينة المشهورة . فقالت جارية ظريفة
للمعتصم ، وقد أسف على موت هؤلاء الفنانين الثلاثة : يا
سيدى ! أظن أن فى الجنة عرساً فطلبوا هؤلاء إليه . وحدث أن



وقع حريق في حجرة هذه الجارية بعد قليل ، فأتى على كل ما
تملكه ، وسمع المعتصم الجلبة ، فدعا بها ، وسألها عما أصابها ،
فقالت يا سيدى احترق كل ما أملكه . فقال : لا تجزعى !
فإن هذا لم يحترق ، وإنما استعاره أصحاب ذلك العرس (١).